ملحق (٣): مهمة فهم النص

كان القرن الثالث الهجرى عصر استقرار، جاء بعد عصر أضطراب عنيف، وتطور وثورة شديدى الخطر. فلئن كانت حياة المسلمين طوال القرن الثاني مضطربه مختلفة، يكثر فيها الاضطراب العقلي والسياسي فإن القرن الثالث هو عصر أستقرار بجميع مايمكن أن تدل عليه هذه الكلمة، سواء في الناحية السياسية أو في غير الناحية السياسية.

ففي الحياة العقلية لم نجد مانشعر به من الاضطراب، والشك، ولم يظهر المجون في هذا القرن الثالث كما ظهر جلياً بشعاً في القرن الثاني، وليس غريباً ولا قليل الدلالة أن أبا نواس مات في سنة تسع وتسعين ومائة، أى أنه مات مع القرن الثاني.

بعيد جداً هذا الشبه الذى نحاول أن نجده بين الشعراء الذين عاشوا في القرن الثاني، والشعراء الذين عاشوا في القرن الثالث، فعندما نقرأ شعر أبي تمام والبحترى وابن المعتز وابن الرومي - لن نجد شيئاً يشبه حتي من بعيد هذا المجون الذى نجده في شعر بشار، وأبي نواس، وأمثالهما.

ثم ليس الأمر مقصوراً على شعر الشعراء، بل نستطيع أن نقف على علم العلماء في القرن الثاني، وفي القرن الثالث، وسنجد أن العلم في القرن الثاني لم يكن هادئاً ولامستقراً، بل كان ناشئاً متجدداً، ذلك أن العلماء في القرن الثاني كانوا يلتمسون علمهم، ويحاولون إيجاد الصلة بينه وبين اللغة العربية، ويحاولون أن يجددوا هذا العلم الغريب في بلد لم يكن له به عهد، يوفقون أحياناً، ويخطئون أحياناً، فالفلسفة اليونانية والسريانية تترجم أيام المنصور ترجمة مضطربة، ثم يحاولون ترجمتها ترجمة أقرب إلى الصحة، وأدني إلى الصواب أيام الرشيد، ثم تترجم ترجمة صحيحة في أيام المأمون، ثم يسيرون بها إلى تفهم وشرح، ثم إلى تفصيل ونقد.

هذه المحاولات التي تظهر واضحة في الفلسفة - تظهر كذلك واضحة في غير الفلسفة من العلوم فالنحويون في القرن الثاني، مضطربون يحاولون أن يضعوا قواعده على أسس ثابتة، منهم قوم يؤثرون القياس ويتعمقونه، وآخرون يؤثرون السماع ويكتفون به، حتي إذا قارب القرن الثاني أن ينتهي - كان النحو قد نظم في كتاب سيبويه، وقل مثل هذا في بقية العلوم التي عني بها العرب.

وقد كان للشعراء في العصر الجاهلي، والقرن الأول حظوظ يسيرة جداً من الثقافة، وكان الطبع الخصب في شعرهم أكثر من أثر العلم، فلم يكن الفرزدق أو جرير

أو الأخطل علماء، ولم يكونوا يحفلون بالعلم، ولكن كانوا يعرفون من أمر قبيلتهم وأدب العرب مايعرفه رجل مستنير، أما في القرن الثاني عصر بشار، وأبي نواس فقد تغير فيه حظ الشعراء من الثقافة، وأصبح الشعراء جميعاً يأخذون منها بحظوظ مختلفة، وكلفوا كلفاً عظيماً بالثقافات المنتشرة، وقليل منهم عني بغير الأدب كبشار الذى لم يكن أديباً فحسب، وإنما كان متكلماً قبل أن يكون شاعراً.

أما في القرن الثالث فالشعراء على غير هذا كله ، فهم لايكتفون بالشعر، ولايكتفون بهذه الثقافات على أنها تغذية لنفوسهم فحسب، بل كان منهم من يعني بناحية، ويريد أن يكون مختصاً بفرع من فروع العلم، ويحاول أن يؤلف الكتب، وأن يذيعها، فأبو تمام يضع كتاب الحماسة، والبحترى أيضاً يضع كتاب الحماسة، ابن المعتز يضع كتباً، ويحاول وضع نظرية في البديع.

وفي القرن الأول للهجرة لم يكن هناك نثر ظاهر، وكان الشعر هو اللسان الوحيد الذى يعبر عن الأمة العربية في حياتها السياسية وغير السياسية، وفي القرن الثاني ظهر النثر، وكان الكتاب يحاولون أن يكسبوا لأنفسهم مكانة، وكان كل شئ في هذا مضطرباً، فلما أنتهي القرن الثاني كان النثر قد وصل إلى ما كان يريد، واستطاع أن يزاحم الشعر، أن يقف معه جنباً إلى جنب، وفي القرن الثالث أخذ يتفوق عليه، فيم يبق الشعر هو اللسان الوحيد الذى تضطر الأمة إلى أن تتخذه ترجماناً لحياتها العامة، وإنما لسان من لسانين أحدهما النثر.

وإذا كانت هذه هي الحال فلابد أن نلم بهذه الثقافات التي كانت منتشرة أيام هؤلاء الشعراء، وهذه الثقافات ثلاث: إحداهما الثقافة العربية الخالصة، التي تعتمد على القرآن، وما يتصل به من علوم الدين، وعلى الشعر ومايتصل به من النحو، واللغة وغيرهما، وثانيهما الثقافة اليونانية وثالثتها: الثقافة الشرقية. وأريد أن أدل بهذا اللفظ على ثقافة معقدة، هي التي تجدها عند الفرس والهنود والأمم السامية، وكانت هذه الثقافات يخاصم بعضها بعضاً، فريق يتعصبون للثقافة اليونانية ويدافعون عنها، وفريق آخر يتعصب للعربية ويدافع عنها، وكان قوم يتوسطون أولئك وهؤلاء، ولم يكن بد للشعراء أن يأخذوا بحظوظهم من هذه الثقافات. وقف عند الأبيات التالية لأبي تمام من قصيدته في فتح عمورية:

١- السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
٢- بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
٣- والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لافي السبعة الشهب

٤- يايوم وقعة عمورية انصرفت عنك المني حفلا معسولة الحلب
٥- لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
٦- فبين أيامك اللآتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب

فسترى أنها تمثل تمثيلا صادقاً هذه الثقافات الثلاث، فيها العربية واضحة في لغتها، ونظمها، وفي عقد الصلة بين فتح عمورية وفتح بدر، وتظهر الثقافة الفارسية في مهاجمة المنجمين، واليونانية عندما يذكر مدينة عمورية وقوتها، ثم يظهر أثر هذه الثقافات كلها عندما تدرس طبيعة الخيال الشعرى عند أبي تمام، فنحن نجد في الخيال أثر هذه الثقافات.